

الباب الثالث

العصر الأوسى



## الشعر

كانت القصيدة في العصر الأموي امتدادا للعصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام . ومن أهم شعراء العصر الأموي : الفرزدق وجريروالأخطل والشريف الرضى وكثير عزة والخنساء وذو الرمة . وجميل بثينة . ومجنون ليلى . وقيس بن ذريح . والكميت . والطرماح . وعروة بن حزام . ونصيب بن رباح . والمقنع الكندي . والمثقب العبدى وغيرهم .

وقد رجح الباحثون إصابة الشعر العربي بالجمود والركود بعد ظهور الإسلام ؛ ذلك لأن الدوافع التي كانت تدفع الشعراء إلى قول الشعر في العصر الجاهلي قد اختلفت . فقد حارب الإسلام العصبية والمفاخرات والمنازعات بين القبائل ؛ لأن هذه الأشياء أصبحت تخالف روح الإسلام الذي دعا إلى مكارم الأخلاق . وإلى المحبة بين الناس . وإلى الفضيلة والإخاء . وبيّن أن التمايز بين الناس يكون بالتقوى والعمل الصالح . كذلك شغل المسلمون عن الشعر وروايته بالفتوح الإسلامية . وما حققته من انتصارات وغنائم . وكذلك شغلوا بما جد من معارف إسلامية كالتفسير والمغازى والحديث والسّير .

ولم يطل أمد الركود الأدبي طويلا . فسرعان ما نهض الشعر في أماكن مختلفة من الدولة الإسلامية ؛ لنشوب الفتن الداخلية وظهور الأحزاب السياسية . ومن ثم رجعت العصبية القبلية والعادات الجاهلية . وشاع الغناء والشراب

والمجون في بيئة البصرة . والكوفة والحجاز والشام حيث نشأ جيل جديد من الشعراء ولد في ظل الإسلام . وعاش في دولة الإسلام بما جدّ عليها . فتأثر بتياراتها السياسية والاجتماعية والدينية وتأثر أيضا بالقرآن الكريم والحديث الشريف . فأنتجت هذه المجموعة شعرا إسلاميا . عبروا فيه عن كل جوانب الحياة الإسلامية فأحسنوا التعبير عنها ، وأجادوا تصويرها . وأضافوا أنواعا أدبية جديدة اقتضتها ظروف الحياة السياسية والاجتماعية كالغزل والسياسة والزهد والخبريات حتى قيل إن هذه الأنواع الأدبية قيلت لترضى ميول الجماهير ويؤيدنا في ذلك ما ذكره البغدادي عن "عكرمة الضبي" عن أبيه قال : أدركت الناس بالكوفة من لم يرو : طربت وما شوقا إلي البيض أطرب) فليس بشيعي . ومن لم يرو : (ذكر القلب إلفه المهجورا) فليس بأموي . ومن لم يرو : (هلا عرفت منازلنا بالأبرق) فليس بمهلبى . وقال ابن سلام :<sup>(١)</sup> "مات كثير عزة وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد . فاحتفلت قريش في جنازة كثير . ولم يوجد لعكرمة من يحمله" .

فإذا تأملنا ما ذكره البغدادي لاتضح لنا شغف الكوفيين بشعر السياسة . وقول ابن سلام يدلنا علي شغف الحجازيين بشعر الغزل . وإعجابهم به إعجابا شديدا . لأن هذا الفن خفف أثقالهم . وصور آمالهم . وأرضى نزعاتهم . وقد تطورت القصيدة العربية في الكوفة والحجاز والشام في بنائها وأسلوبها ومعانيها . وأوزانها . وقوافيها . فهي من حيث البناء تألفت غالبا من غرض واحد سواء أكان غزلا أم سياسة أم وصف خمرة . أم زهد ؛ ولذلك قل عدد أبياتها بالقياس إلي عدد

(١) طبقات الشعر والشعراء ص ١٢٤

أبيات القصيدة الجاهلية التي كانت عبارة عن عدة أغراض تبدأ بالمقدمات الطللية أو الغزلية ثم وصف الناقة ثم الرحلة وما تتبعه من مشقة . ثم الغرض من القصيدة . وبالتالي قصرت القصيدة حتى أصبحت في كثير من الأحيان عبارة عن مقطوعة شعرية من عدة أبيات . ويظهر ذلك في شعر الخوارج وفي أشعار الغزليين .

ومن هنا ترك أغلب الشعراء في الكوفة والبصرة والحجاز والشام مقدمات النسيب التي كان الجاهليون يفتتحون بها قصائدهم ومثال ما قلناه قصيدة "الكميت الأسدي" التي يقول فيها :

مالي في الدار بعد ساكنها

ولو تذكرت أهلها أربُ

يا باكي التلعة القفار ولم

تبك عليه التلاع والرحبُ

أبرح بمن كلف الديار وما

تزرع فيه الشواحج التعبُ

وإذا تأملنا النص السابق نجد أن الشاعر قد سخر من النسيب والنسابين . ومع ذلك فأسلوب القصيدة اتسم بالرقّة والعذوبة كما غلب عليه الوضوح والجزالة وقد أحس المعاصرون من أهل البصرة بتطور أسلوب القصيدة في الحجاز والكوفة فقالوا إن في أسلوب الحجازيين لنا وسهولة . وأحسوا أيضاً بأن في أسلوب بعض الكوفيين كالكميت والطرماح ميلاً وانحرافاً عن الأساليب العربية القديمة ؛ لاستعمالهما الغريب في غير موضعه ؛ ولتأثرهما بلغة السواد من الناس . وأما

المعاني فيغلب عليها الجدة والابتكار؛ لأنهم استمدوا موضوعات قصائدهم من مقومات الحياة الإسلامية . ونكتفي بذكر بعض المعاصرين لهؤلاء الشعراء والتي تدين ما أضافه الشعراء علي المعاني من جدة وابتكار.

قال عبد الملك به مروان : يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبحر .  
ومرة بالجبل الأوعر . ومرة بالبحر الأجاج . ألا قلت كما قال أيمن بن خزيمة في  
بني هاشم :

نهـاركم مكابـدة وصـوم

ولـيلكم صـلاة واقـتراء

وفي كتاب الأغاني أنشد جرير قول عمر به أبي ربيعة :

سائلا الريح بالبلى وقولا

هجت شوقا لي الغداة طويلا

وفي كتاب الأغاني أيضا سمع الفرزدق عمر به أبي ربيعة ينشد :

جرى ناصح بالود بيني وبينها

فقربني يوم المصاب إلي قتلي

ولا بلغ قوله :

فقمنا وقد أفهمنا ذا اللب أنما

أتين الذي يأتين من ذاك من أجلي

صاح الفرزدق : هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وبكت علي الديار .

وإن كانت هذه الآراء انطباعية إلا أنها بينت تطور الأسلوب وجدة المعاني .

أما التجديد في الأوزان والقوافي فقد كان كثيرا . فبينما كان شعراء البصرة يسيرون علي نبط الأوزان الجاهلية القديمة نجد شعراء الكوفة والشام والحجاز يجنحون إلي استعمال الأوزان النادرة كالمديد والأوزان القصيرة كالمقارب والخفيف والرمل ومجزوء الكامل .

ونظرة سريعة في أشعار عمر بن أبي ربيعة . وعبيد الله بن قيس الرقيات . والوليد بن يزيد ترينا مقدار هذا التطور في الأوزان . وكما تطورت الأوزان تطورت القوافي إذ مال الشعراء إلي استعمال الحروف اللينة والرخوة والتي لها إيقاع موسيقي ساحر في قوافيهم .

يقول ابنه قيس الرقيات :

إن الحوادث بالمدينة قد

أوجعتني وقـرعن مروتيه

وجببتني جب السنام ولم

يتركـن ريشا في مناكبيه

وقد تأثر في قافيته بقول الحس سبحانه وتعالى :

"ما أحنى حنـى هالـه , هلك حنـى سلطانبة".

ويتوقف مؤرخو الأدب العربي عند شعراء الغزل في بداية العصر الأموي مثل قيس وليلي ، وقيس ولبنى ، وجميل وبثينة وغيرهم . ويعدونهم مدرسة أدبية متميزة في تاريخ الأدب العربي ، فمعظم الأدب العربي عندما يقترب من المرأة يقترب منها جسداً كوصف الأعشى وامرئ القيس في معلقتهما وكوصف عمر بن أبى ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيات والعرجى وغيرهم لمحيوباتهم في عصر بنى أمية ،

وإذا أخذنا نماذج من شعر هذه المدرسة نجدهم قد تخلصوا من المقدمات وانتقلوا مباشرة إلى الغرض من الموضوع فأصبحت قصائدهم في أغلبها مقطوعات قصيرة تحققت فيها الوحدة العضوية .

يقول قيس به زريع :

وما أحببت أرضكم ولكن

أقبل إثر من وطئ الترابا

لقد لاقيت من كلفى بليلى

بلاء ما أسخ به الشرابا

إذا نادى المنادى باسم ليلى

عييت فما أطيق له جوابا

فهذا فعل شبحينا جميعا

أرادا لى البليسة والعذابا

ويقول كثير عزة :

ولما رأته وجدى بها وتبينت

صباية حران الصباية صادٍ

أدلت بصبر عندها وجلادة

وتحسب أن الناس غير جلدٍ

فياعزّ صادي القلب حتى يودنى

فؤادك أو ردىّ علىّ فؤادي

وقد حفل العصر الأموي بالشعر السياسي خاصة بعد ظهور الأحزاب السياسية من أموى وشيعى ومهلبى . كما حفل أيضا بشعر النقائض التي غلب عليها التقليد والمحافظة . وإرضاء النقاد بالسير علي نظام القصيدة الجاهلية وعناصرها وذلك لأن جميع قصائد جرير وأهم قصائد الفرزدق كانت تتألف من عدة أغراض . فقد كان الشاعران غالبا ما يفتتحان نقائضهما بالنسيب والبكاء علي الأطلال والشكوى من التعب والسير وإنضاء البعير ثم يعقبان علي ذلك بالعرض من القصيدة سواء أكان الغرض فخرا أم مدحا أم رثاء أم هجاء أم وصف مشاهد البادية أو وصف المعارك . والأمثلة علي ذلك كثيرة ففي المثال الذي سنذكره نرى الفرزدق ينسب ويشبب ويبكى الطلول ويصف لهوه القديم .

يقول الفرزدق :

أستم عائجين بنا لعنا

نرى العرصات أو أثر الخيام

فقالوا إن فعلت فأغن عنا

دموعا غير راقية السجام

فكيف إذا رأيت ديار قوم

وجيراننا كانوا كرام

أكفكف عبرة العينين منى

وما بعد المدامع من كلام

ثم يصف راحلته وما أصابها من ضعف وهزال وما سينالها من خير علي يدي

الخليفة :

أقول لها إذا عطفت وعضت

بموركاة الوراق مع الزمام

إلام تلفتين وأنت تحتى

وخير الناس كلهم أمامي

متى تأتي الرصافة تستريحي

من التهجير والدبر الدوامي

ويُلقي الرجل عنك وتستغيثي

بملاء الأرض والملك الهمام

ثم ينتقل بعد ذلك إلى المديح ثم الهجاء الذي يختتم به النقيضة .

وقد التزمت النقائض أكثر البحور دورانا في الشعر الجاهلي كالطويل  
والكامل والوافر والبسيط والمتقارب والرجز . والملاحظ أن أغلب معاني النقائض  
استمدت من الأدب الجاهلي سواء كان الأدب شعرا أم أمثالا أم قصصا . وقد  
اعترف الفرزدق نفسه بأنه تتلمذ علي يد امرئ القيس والمخبل السعدي وعلقمة  
الفحل والأعشى ولبيد وزهير فيقول :

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا

وأبو اليزيد وذو القروح وجرول

والفحل وعلقمة الذي كانت له

حلل الملوك ، كلامه لا ينحل

وأخو بنى قيس وهن قتلنه

ومهاهل الشعراء ذاك الأول

والأعشيان كلاهما ومـرقش

وأخو قضاة قوله يتمثل

وقد تأثرت النقائض أيضا ببداوة الأسلوب لإعجاب اللغويين بالشعر  
الحوشى وتقديمهم قائله علي غيرهم ؛ لهذا نشأ عند الفرزدق وجرير ميلا شديدا إلى  
مجاراة أساليب القدماء البدوية مما جعل نقائضهما تمتلئ بالألفاظ الغريبة

والمهجورة كما استمدا من البيئة الصحراوية بداوة الخيال . فسارت تشبيهاتهما علي النحو الذي نراه متبعا في الشعر الجاهلي . وبذلك فرض الشعر القديم نفسه علي كبار الشعراء عن طريق النقاد الذين فرضوا منهج القصيدة القديمة من حيث الأسلوب والمعاني والتشبيهات . وبذلك خضع شعراء البصرة للنحاة في البيئة البصرية . فغلب علي شعرهم التقليد والمحافظة علي النهج القديم . بينما غلب علي شعراء الحجاز والكوفة والشام التجديد في قصائدهم .

ولعل نشوء فن المديح وازدهاره كان بسبب العصبية القبلية والمفاخرات والخصومات العنيفة . ومواسم المريد . وتنافس الشعراء فيها . ودور الحكام وإحيائهم للعصبية . كل ذلك كان سببا في نشوء فنون الفخر والهجاء والحماسة وغير ذلك من الأغراض الجاهلية .

وقد يكون من أسباب تجديد الشعر في الألفاظ والمعاني والأسلوب والتشبيهات في الشام والكوفة والحجاز والمدينة هو تحول المجتمع العربي إلي مجتمع مدني . ومن مجتمع صيد ورعى إلي مجتمع تجارة وثراء فعمربن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات من قريش والعرجى من أثرياء ثقيف والأحوص من الأنصار .

وبذلك تغير شكل القصيدة عند هؤلاء لفظا ومعنى وخيالا . وانعكست ظاهرة الثراء علي ألوان الشعر ومنها شعر الغزل .

يقول عبيد الله به قيس الرقيات :

ألا هزئت بنا قرشية يهت زموكبه  
رأت بي شيبه في الر أس منى ما أغيبها

لها بعل غيور قـا عـد بالباب يحجبها  
 يرانى هكذا أمشى فيوعدها ويضربها  
 ظلمت علي نمارقها أفديها وأخابها  
 أحدثها فتؤمن لي فأصدقها وأكذبها  
 فلما أن فرحت بها ومال علي أعذبها  
 شربت بريقها حتى نهلت وبيت أشربها  
 وأضحكها وأبكيها وألبسها وأسلبها  
 فكانت ليلة في النوم م نسمرها ونلعبها<sup>(١)</sup>

وإذا نظرنا إلى المقطوعة وتأملناها نجد أنها تعبر عن مجتمع الأثرياء اللاهين الذين يمزجون الترف بالشهوة . والشهوة بالفن . وقد قرن فيها الشاعر اللهبوعذب الحديث . بل وأيضاً بالغناء . وقد شجع الخلفاء هذا الاتجاه حتى ينشغل الناس عن نظام الحكم في هذه الآونة . فيتركون السياسة إلي اللهو . وإلي إرضاء مستمعهم بما يلذ لهم عوضاً عن التعبير عن مكنون أنفسهم . وأصبح الغزل مقصداً في ذاته لا تمهيداً للقصيدة . وأصبحت القصيدة عند شعراء الشام والحجاز والكوفة والمدينة تدور في غرض واحد . وبالتالي أصبح الشعر حرفة وصناعة يلجأ إليها الشاعر إلي التجديد والتحسين .

(١) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات .

## اتجاهات الشعر في العصر الأموي

### الاتجاه الأول :

السير علي منهج القصيدة الجاهلية في الحديث عن المقدمة الطللية أو المقدمة الغزلية أو وصف الخمر ثم الحديث عن الناقة القوية التي تتغلب علي مشاق السفر ثم الرحلة في الصحراء ثم الغرض من القصيدة وكان علي راس هذا الاتجاه الفرزدق وجريير، وتبنى هذا الاتجاه شعراء البصرة، وكان للنقاد الدور الكبير في السير علي هذا النهج . فقد حاربوا كل من خرج علي عمود الشعر الجاهلي . واستظل بظلمهم من سار علي منهجهم .

### الاتجاه الثاني :

تطوير القصيدة وإن كان هذا التطوير قد بدأ في العصر الجاهلي وخاصة المقطوعات وقصائد الرثاء والوصف وبعض قصائد الغزل كغزليات المرقش الأكبر والمرقش الأصغر ومن سار علي منوالهما . وقد كان لحرفية الشعراء الدور الأساسي في صناعة الشعر مما دعاهم إلي التجديد في الموضوعات والتحسين في الأداء . وقد انصب الدور الأساسي في ذلك إلي شعراء الحجاز والمدينة والكوفة والشام وقلنا إن المجتمع قد تحول من مجتمع صيد ورعى وزراعة إلي مجتمع مدنى يميل إلي الترف واللهو وبذلك عبر الشعراء بعذوبة عن هذه الفترة .

## الاتجاه الثالث :

تشجيع الخلفاء للشعراء على شعر اللهو والمجون والغزل حتى ينشغل الناس عن نظام الحكم فيتركون السياسة وينشغلون باللهو وبالتالي أصبح الشعر حرفة للشعراء .

## أغراض الشعر في عصر بني أمية

### أولاً شعر المربح :

حرص الشعراء منذ العصر الجاهلي أن يشيدوا بخصات أشرافهم وذوي النباهة فيهم ، وكان السيد لا يعد سيدي إلا إذا ذاع صيته بين القبائل ، ومضوا على ذلك في عصر صدر الإسلام ، ولكن الأمر تطور إلى أكثر من ذلك في عصر بني أمية ، فمدح الشعراء الخلفاء والأمراء والولاة وأصحاب الشرطة والعاملين على الخراج ، ومن أعلام شعراء المديح : نصيب ، والقطامي ،  
يقول نصيب في مدح عبد العزيز بن مروان :

فبشر أهل مصر فقد أتاهم مع النيل الذي في مصر نيل

يقول فيحسن القول ابن ليلي ويفعل فوق أحسن ما يقول

ويقول القطامي في مدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك :

إننا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل

ويقول في مدح ابن خارجة الفزاري :

إذا مات ابن خارجة بن حصن فلا هطلت على الأرض السماء

ولا رجع البريد بأي خير ولا حملت على الظهر النساء

وإذا تتبعنا شعر القطامي فسنجد أهم ما يميزه صفاء موسيقاه، وحلاوة ألفاظه، وعذوبة أنغامه، وتمكن قوافيه، وجودة مطالعه.

ثانياً: شعر الهجاء والنقائض:

احتدم الهجاء في هذا العصر بتأثير العصبية التي احتدمت في كل مكان ونشوب الحروب الكثيرة بين على - كرم الله وجهه - وخصومه، وعملت بجانب العصبية أسباب كثيرة منها: وقوف شاعر في تهاجيه مع شاعر آخر، حينئذ يرميه بسهام هجائه، على نحو ما هو معروف عن جرير والفرزدق، كذلك مفاضلة أحد الولاة بين من يمدحونه فيذم الشاعر المفضل، والمدح معاً، وقد يبطن الممدوح على مادحه بمكافأته، فيتحول إلى هجائه، وقد يحرم ممدوحاً مادحاً من عطائه، فيسرع إلى هجائه.

يقول أعشى لهران في هجاء خالد بن عتاب والي الري وأصبهان:

ويركب رأسه في كل وحل ويعثر في الطريق المستقيم

وكما كانت العصبية عاملاً مهماً في عودة شعر الهجاء في هذا العصر، فإنها كانت عاملاً مهماً في وجود فن النقائض، وساعد على نموها بجانب العصبية أسباب كثيرة بعضها عقلي، وبعضها اجتماعي.

ومن أهم من وقفوا أنفسهم على تنمية هذه النقائض: جرير والفرزدق، وقد تكاملت حلقات المناظرات العنيفة بين الشعارين، وكان لكل منهما فريق ينحاز له، يقول جرير في هجاء الراعي النميري وكان من مناصري الفرزدق:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولم يلبث الراعي بعد سماع القصيدة أن انصرف من مجلس الفرزدق إلى قومه ، وهو يقول : فضحنا والله جرير . وهذا يدل دلالة واضحة على قدرة جرير على الهجاء ، وعلى قدرته على هزيمة من يقفون ضده ، ولذلك قيل بأنه أسقط في الهجاء ثلاثة وأربعين شاعرا ، وقالوا بل أكثر من ثمانين . وكان من الذين اشتبكوا معه الأخطل ن وفي الحق كان الفرزدق أهم شاعرا اشتبك معه جرير ، ولم تكن النقيضة تحوي فخرا وهجاء فقط ، بل كانت تحوي بجانبيهما على المديح والنسيب والغزل ،

**من نقيضة للفرزدق يهجو جريرا :**

ولو ترمي بلؤم بني كليب	نجوم الليل ما وضحت لسا
ولو يرمي بلؤمهم نهار	تدنس لؤمهم وضح النهار
وما يغدر عزيز بني كليب	ليطلب حاجة إلا بجار

ويرد علي نقيضته جرير بنقيضته ، فمضى بعد غزلها يتحدث عن الفرزدق

وفسقه الذي اشتهر به ، فيقول :

لقد ولدت أم الفرزدق فاجرا	وجاءت بوزواز قصير القواد
وما كان جار للفرزدق مسلم	ليأمن قردا ليلة غير نائم
أتيت حدود الله إذ أنت يافع	وشبت فما ينهاك شيب اللهازم
تتبع في الماخور كل مريبة	ولست بأهل المحصنات الكرائم

وكان جرير يعرف كيف يستخرج التفوق من كل شيء ، ومما غاظه انضمام الأخطل النصراني إلى الفرزدق ضده ، فأخذ يُضحك كل من في المربد من الشعراء عليهما بقوله :

وإنك لو تعطي الفرزدق درهما      على دين نصرانية لتنصرا

وقوله أيضا :

تحبك يوم عيدهم النصارى      ويوم السبت شيعتك اليهود

ومع ذلك عندما مات الفرزدق رثاه جرير رثاء حارا قال فيه :

ولا حملت بعد الفرزدق حرة ولا ذات حمل من نفاس تعلت

هو الوافد المجبور والحامل الذي إذا النعل يوما بالعشيرة زلت

وكما اصطدم الفرزدق بجرير ، اصطدم الأخطل به ، وربما كانت نقيضة "

خف القطين " من أروع نقائضه مع جرير ، فنراه يستهلها بالغزل ، ووصف حزنه

لفراق أحبته ، ويصف الخمر ووصفا قصيرا ، وانتقل بعد ذلك إلى وصف ظعن

الحبيبة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدح عبد الملك بن مروان ، ومضى بعد ذلك يهجو

جريرا وعشيرته كليبا هجاء مقذعا قال فيه :

حَفَّ الْقَطِينُ فَرَا حَوَا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا      وَأَزَعَجَتْهُم نَوَى فِي صَرَفِهَا غَيْرُ

وقال أيضا :

أما كليب بن يربوع فليس لهم      عند المكارم لا ورد ولا صدر

مخلفون ويقضي الناس أمرهم      وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا

ملطمون بأعفار الحياض فما      ينفك من دارمي فيهم أثر  
على العيارات هداجون قد بلغت      نجران أو حدثت سواتهم هجر

فيرد عليه جرير مفتخرًا عليه بانتصار قيس - قبيلة الشاعر - عليهم في الجاهلية :

لم يخز أول يربوع فوارسهم      ولا يقال لهم كلا إذا افتخروا  
نحن اجتبينا حياض المجد مترعة      من حومة لم يخالط صفوها كدر  
خابت بنو تغلب إذ ضل فارطهم      حوض المكارم إن المجد مبتدر

ومن الواضع أنه كان يرد على نقيضة الأخطل معنى معنى، فيبضي قائلاً :

رجس يكون إذا صلوا أذانهم      قرع النواقيس لا يدرون ما السور  
وما لتغلب إن عدت مساعيها      نجم يضيء ولا شمس ولا قمر  
الضحكين إلى الخنزير شهوته      يا قبحت تلك أفواها إذا اكتشروا  
والمقرعين على الخنزير ميسرهم      ببس الجزور وببس القوم إذ يسروا  
جاء الرسول بدين الحق ما انتكتوا      وهل يضير رسول الله أن كفروا

ويقول في نقيضة أخرى:

إن الذي حرم المكارم تغلبا      جعل النبوة والخلافة فينا  
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم      يا خزر تغلب من أب كأبينا  
هذا ابن عمي في دمشق خليفة      لو شئت ساقمكم إلي قطينا

ومن طريف ما رواه أصحاب السير، ورواة الأخبار أن الأخطل حين حضره الموت

قيل له : ألا توصي ؟ قال على الضر :

أوصي الفرزدق عند الممات بأم جرير وأعيارها

ولم يكذب يسمع بذلك جرير حتى رد عليه بيت من وزن البيت السابق وقافيته ، قال فيه :

زار القبور أبو مالك فكان ألام زوارها

وعموما كان جرير يتفوق دائما على خصومه جميعا في الهجاء وقد شهد الأخطل له بذلك إذ قال للفرزدق: إن جريرا أوتي من سير الشعر ما لم توتّه ، فالمسألة إذن لم تكن هجاء حادا وإقذاعا وسبا ، بل كانت مناظرة فنية بالشعر بين ثلاثة من رواد هذا الفن الذي يعدّ جديدا في الشعر العربي ، هذا بالإضافة إلي أنهم كانوا من أعلام شعر المديح والفخر في العصر الأموي.

## النثر في العصر الأموي

لم يزد النثر في العصر الأموي عما كان عليه أيام الخلفاء الراشدين وقد تمثل النثر في مظهرين الخطابة والكتابة ولم يزد عليهما مظهر آخر . وقد بقى كل نوع منهما علي حالته التي كان عليها . فها هي الخطابة واقفة عند حدها التي عرفت بها في عهد صدر الإسلام . يتعهدا ولاة الأمويين عند مجيئهم إلي الأمصار معلنين ولايتهم ثم يتعهدونها في كل يوم جمعة واعظين مذكرين . وهم في جل خطبهم يحذرون الناس من الفتنة داعين إلي اجتماع الكلمة . كذلك إعلان الرأى وتحميس الجند في وقت الحرب كان للخطابة دورها السياسي والاجتماعي والديني وقد حافظ الخطباء علي عادات الخطابة القديمة من اعتجار العمامة . والاشتغال بالرداء . واتخاذ المخرصة . والوقوف على مكان عال . والاعتماد علي قوس في وقت الحرب . وعلي عصا في وقت السلم . وتعتبر الخطابة في هذا العصر امتدادا لعصر صدر الإسلام وقد استعان الخطباء في خطبهم بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ٣ ، وخطباء بنى أمية كثيرون منهم معاوية بن أبى سفيان . وزياد بن أبيه . والحجاج بن يوسف الثقفى . وعتبة بن أبى سفيان وموسى بن نصير وطارق بن زياد وغيرهم . . .

ولنأخذ بعض نماذج الخطابة في هذه الفترة :

## النموذج الأول :

خطبة محمد بن أبي بكر :

لما كتب عمرو بن العاص يهدده ويدعوه إلى التسليم وكان واليا علي مصر من قبل علي بن أبي طالب t رد عليه واشتد في رده ثم قال خطيبا :  
" أما بعد .. فإن القوم الذين ينتهكون الحرمه ويشبون نار الفتنة . قد نصبوا لكم العداوة . وساروا إليكم بجيوشهم . فمن أراد الجنة فليخرج ليجاهدهم في الله . انتدبوا مع كنانة بن بشر" .

يقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة :

فانتدب الناس معه وخرجوا للقاء القوم .  
إذا تأملنا النص فسنجده يميل إلى بساطة الأسلوب وإلى وضوح المضمون .  
وكذا الإيجاز والنفاذ إلى غرضه . وقلة الصور وأساليب الزخرف .

## النموذج الثاني

خطبة لعنبة به أبي سفيان :

لما قدم عتبة إلي مصر سنة ٤٣هـ أقام بها شهرا ثم خرج منها وافدا علي أخيه معاوية بدمشق ، واستخلف علي مصر عبد الله بن قيس . وكان فيه شدة فكرهه الناس بمصر . فبلغ ذلك عتبة فرجع إلي مصر وصعد المنبر ولم يبدأ الخطبة كما بينا بالحمد لله والثناء عليه ثم الصلاة علي النبي ﷺ ثم موضوع الخطبة ثم الختام . ولكننا سنلاحظ أنه دخل في الموضوع مباشرة . فقال :

"يا أهل مصر تعذرون ببعض المنع منكم ، لبعض الجور عليكم ، وقد وليكم من قال فعل ، فإن أبيتم درأكم بيده ، فإن أبيتم درأكم بسيفه ، ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول . إن البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع والطاعة . ولكم علينا العدل ، فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه" .

يقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة :

فناداه المصريون من جنبات المسجد : سمعا سمعا . فناداهم عتبة عدلا عدلا ثم نزل .

والملاحظ في النص وضوح المعاني وسلامة الألفاظ . وقلة الصور . كما يلاحظ جزالة اللفظ وترابط الفكرة وتسلسلها ، وبساطة التعبير ، والإيجاز . والاعتماد علي الموازنة والازدواج وبعض المحسنات البيعية كالسجع والطباق ؛ لأن الخطيب في حاجة إلي تغيير الأثر النفسي الذي تركه عبد الله بن قيس .

### النموذج الثالث

من خطبة معاوية بن أبي سفيان حين قدم المدينة بعد مصالحة الحسن بن

علي t عام ٤١ هـ.

**حمد الله وأتني عليه ثم قال :**

"أما بعد . فإنى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم . ولا مسرة بولايتي ؛

ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسي علي عمل ابن أبي

قحافة وأردتها علي عمل عمر فنفرت من ذلك نفارا شديدا . وأردتها علي سُنَيَات

عثمان فأبت عليّ . فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة ؛ مؤاكلة حسنة ومشاركة

جميلة . فإن لم تجدونى خير لكم . فإنى خير لكم ولاية . والله لا أحمل السيف علي

من لا سيف له . وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت

ذلك له دَبْرَ أذنى وتحت قدمى . وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه

. فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ؛ فإن السيل إذا جاء أترى . وإن قلّ أغنى . وإياكم

والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة"

والخطبة كما نرى تميزت بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب اعتمد فيها علي

الازدواج والسجع والموازنة . الصور قليلة والمحسنات غير متكلفة . والمعنى واضح

بدأها بالحمد لله والثناء عليه ثم تحدث في غرضه بوضوح . تتميز الخطبة بالترابط

فقد أراد أن يبين أنه لن يسير علي خط من سبقه بل له طريقه وطريقته التي

يحكمهم بها .

## النموذج الرابع

مه خطبة البراء لزياد به أبيه حين قدم واليا علي البصرة مه قبل معاوية :

"أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء والغى الموفى بأهله علي النار. ما فيه سفهاؤكم ويشتمل علي حلماتكم من الأمور العظام . ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير . كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته . والعذاب العظيم لأهل معصيته . في الزمن السرمدي الذي لا يزول أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا . وسدت مسامعه الشهوات . واختار الفانية علي الباقية . ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه ؛ من ترككم الضعيف يُقهر . ويؤخذ ماله . ما هذه المواخير المنصوبة . والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر . ... ما أنتم بالحلماء . ولقد اتبعتم السفهاء . فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرْم الإسلام . ... حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماء وإحراقا . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ... وإني أقسم بالله لاخذن الولي بالمولى . والمقيم بالظاعن . والمقبل بالمدير . والمطبع بالعاصي . والصحيح بالقسيم ؛ حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول : انجُ سعد فقد هلك سعيد"

ثم حتم خطبته بقوله :

"وأيُّ الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ؛ فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى".

اعتمد زياد في خطبته علي الإرهاب والوعيد وقد ساق خطبته في أسلوب جزل كثرت فيه الموازنة والازدواج والسجع . وقد اكتفينا ببعض أجزاء الخطبة فهي خطبة طويلة عنيفة تحتاج دراسة مستفيضة في أسلوبها وألفاظها ومعناها .

### النموذج الخامس

خطبة عبد الله بن الزبير بعد أن قتل أخوه مصعب :

الحمد لله الذي له الخلق والأمر وملك الدنيا والآخرة يعز من يشاء ويذل من يشاء ألا إنه لم يذلّ والله من كان الحق معه . وإن كان مفردا ضعيفا . ولم يعز من كان الباطل معه . وإن كان في العدة والعدد والكثرة . إنه قد أتانا خبر من العراق بلد الغدر والشقاق ؛ فساءنا وسرنا ؛ أننا أن مصعبا قُتل . رحمة الله عليه ومغفرته . فأما الذي أحزننا من ذلك فإن لفراق الحميم لذعة يجدها حميمه عند المصيبة . ثم يرعوى بعد ذوالرأى والدين إلي جميل الصبر . وأما الذي سرنا منه فإننا قد علمنا أن قتله شهادة له . وأنه عزّ وجلّ جاعل ذلك لنا وله ذخيرة إن شاء الله تعالى .

إن أهل العراق أسلموه . وباعوه بأقل ثمن . لقد قُتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا خيار الصالحين . إنا والله ما نموت حتف أنوفنا . ما نموت إلا قتلا . قعصا بالرماح وتحت ظلال السيوف . وليس كما يموت بنومروان والله ما قتل منهم رجل في جاهلية ولا إسلام قط . وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه

ولا يبديد ملكه . فإن تقبل الدنيا علىّ لا أخذها أخذ الأشر البطر . وإن تدبر عنى لا أبك عليها بكاء الخرف المهين .

### (النموذج (الساوس)

مه خطبة للحجاج بعد ولايته علي العراق :

قد شمريت عن ساقها فشدوا

وجدت الحرب بكم فجذوا

والقوس فيها وتر عرد

مثل ذراع البكر أو أشد

لا بد مما ليس منه بد

إنى والله يا أهل العراق لا يغمز جانبي كتغماز التين ، ولا يقعق لى بالشنان . وأن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا ، وأصلدها مكسرا . فرماكم بى . أما والله لألحونكم لحو العصا . ولأفرعنكم فرع المروءة . ولأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل . والخطبة سارت في شدتها علي نسق خطبة البتراء لزياد بن أبيه . وقد سارت علي نمط الخطب في عصره والخطبة تتميز بشدة الأسر وقوة العبارات وجزالة اللفظ . تكثر فيها عبارات الازدواج . استخدم بعض الصور من البيئة . كما استشهد فيها بالشعر الذى يخدم غرضه . والمحسنات التى استخدمها بعيدة عن التكلف . والخطب التى طرحناها موجزة وهى مع إيجازها بليغة جامعة .

أما الكتابة الفنية فهي جديدة علي البيئة العربية . وخاصة الرسائل التي كانت في البداية امتدادا لعصر صدر الإسلام ثم أخذت تتدرج في طريق النضج حتى أئنعت في عصر بنى أميه وبخاصة في أخريات هذا العصر علي يد الأديب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور . وبذلك وجدنا آفاقها تتسع . ودواعيها تتنوع وتتعدد . مما اقتضى أن يخصص لها ديوان عرف بديوان الرسائل . وكان له أكبر الأثر في إنضاجها . وبروز عنصر الخيال فيها .

## مذوّج للرسائل

كتب عبد الحميد به يحيى رسالة إلى الكتاب فقال :

"أما بعد ... حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة ، وحاطكم ووفقكم ، وأرشدكم ، فإن الله U جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين – صلوات الله عليهم أجمعين – ومن بعد الملوك المكرمين \_ أصنافا وصرفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم . فجعلكم – معشر الكتاب – في أشرفها صناعة فأنتم أهل الأدب والمروءة والحلم والروية . وذوى الأخطار والهمم . بكم ينظم الملك . وتستقيم للملوك أمورهم . ويتديروكم وسياستكم يصلح الله سلطانهم . يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه . والوالى في القدر السنّى والدنىّ من ولايته . لا يستغنى عنكم منهم أحد . فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون . وألسنتهم التي بها ينطقون .

فنافسوا – معشر الكتاب – في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين . وابدأوا بعلم كتاب الله عزوجل . والفرائض . ثم العربية . وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم . وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها" .

إذا تأملنا الرسالة نجد أنها اشتملت علي أفكار مرتبة وألفاظ سهلة ، ومعان واضحة . وعبارات مكتملة البناء مناسبة التعبير . جميلة رائعة . وقد اعتمد الكاتب فيها علي التصوير البياني كما استعمل بعض المحسنات البديعية لإبراز المعنى وتوضيحه . كما نوع بين الأسلوب الخبري والإنشائي ليكسب الكلام حيوية وقوة ، ويكون أكثر نفاذا إلى العقول والصدور .

## الخصائص الفنية للنثر الأموي

بلغت الخطابة والكتابة منزلة عظيمة في العصر الأموي بسبب الفتن والحروب الكثيرة التي أشعل نارها الشيعة والخوارج ومن خرجوا علي حكمهم وهددوا دولتهم لذلك نال النثر الأدبي الكثير من التطور أكثر مما نال الشعر .

- أما الخطابة فقد زادت دواعيها ، واشتدت الحاجة إليها بسبب الثورات التي قامت ، وبسبب تعدد المذاهب الدينية والأحزاب السياسية وتطاحنها ، وبسبب امتداد الفتوحات الإسلامية حتى وصلت عند جبال البرانس غربا وبالقرب من القسطنطينية شمالا والهند والصين شرقا كل ذلك كان يتطلب من الخلفاء والولاة وقواد الجيوش ، وزعماء الأحزاب أن يخطبوا خطبا بليغة قوية التأثير حتى تحقق غرضها في استمالة المخاطبين .

وقد أكثر الخطباء من الاقتباس من القرآن الكريم وضمنوا خطبهم بعض الحكم والأمثال كما لجأ خطباؤهم من الحكام إلي أساليب التهديد والوعيد لخصومهم ، والتمثيل ببعض أبيات الشعر التي تعزز هذا الغرض ، كما حرص الخطباء علي اختيار الألفاظ ، وترابط الأفكار ، ووضوح المعاني ، وحسن تقسيم الجمل بحيث تعطى العبارات جرسا موسيقيا يتناسب مع موضوع الخطبة .

- وأما الكتابة فقد تطورت عن الكتابة في صدر الإسلام ، وقد نضجت واكتمل نموها في نهاية عصر بني أمية لاتساع شئون الدولة ، وتعدد الدواوين ، وحاجة الخلفاء إلي مكاتبه الولاة وقادة الجيوش ، وقد كان للكاتب الكبار الذين تولوا

ديوان الرسائل وخاصة عبد الحميد بن يحيى أياذ لا تنكر في كل ما حققته  
الكتابة الفنية من رقى وازدهار في هذا العصر .

وقد كان للكتابة دورها في تسيير دفة الحكم لذلك اهتم الكتاب في كتابتهم  
الديوانية والدينية ورسائلهم الإخوانية بجمال الصياغة . وتخير الألفاظ وتجويدها  
كما اقتبسوا في كتابتهم كثيرا من معاني القرآن وعباراته وصوره . وأدخلوا في  
كتابتهم ما استحسنوه من تشبيهات الشعر وحكمه . وقد ظهر الطابع الإسلامي في  
الرسائل فقد حرص الكتاب علي افتتاح رسائلهم بذكر اسم الله وحمده والصلاة  
والسلام علي نبيه ٣ .